

دعوة إلى التراث الشعبي - الحلقة الرابعة - مراحل الحركة الفلكلورية الفلسطينية

مجلة التراث والمجتمع العدد 45 - سلسلة دعوة إلى التراث الشعبي - د. شريف كناخعة - 2007/06/20م - 11:30 ص



تحدثنا في الحلقات الثلاثة السابقة (الأعداد 42،43،44) عن حقل الفلكلور بشكل عام. انطلقنا من ذكر الفوضى التي عمّت دراسات ونشاطات التراث الشعبي الفلسطيني في العقود الثلاثة الماضية، ثم حاولنا تصحيح بعض تلك الفوضى عن طريق توضيح بعض المفاهيم الأساسية في حقل الفولكلور، وذكرنا بعض الصفات الهامة التي تميز مادة الفلكلور عن غيرها، كي يتسنى للمتابع والمهتم أن يحصل على صورة صحيحة لهذا الحقل. كنت قد وعدت في نهاية الحلقة الثالثة أن تدور هذه الحلقة، (الرابعة) حول موضوع الثقافة المادية إلا أنني رأيت أن أجعل هذه الحلقة تدور حول كيفية دخول حقل الفلكلور إلى فلسطين، وبكلمات أخرى، مراحل نشاط الحركة الفلكلورية الفلسطينية منذ بدايتها حتى الآن، ونترك الحديث عن موضوع كيفية تبويب مادة التراث الشعبي إلى الحلقة التالية، أي الخامسة، التي سوف نتحدث فيها عن الثقافة المادية وعلاقتها بالفن الشعبي ثم تدور كل حلقة بعد ذلك حول نوع من أنواع مواد التراث الشعبي.

لقد تزامن نشوء وتطور الحركة الفلكلورية الفلسطينية مع نشوء وتطور الحركة الوطنية الفلسطينية، هذا التزامن والتلازم بين الحركتين لم يأت من قبيل الصدفة، ولم يكن غريباً ولا مستهجناً، لا في تاريخ الحركات التحررية الوطنية والقومية ولا في تاريخ نشوء وتطور حقل الفولكلور.

إذا نظرنا إلى تاريخ تطور الحركة الفولكلورية نجد أن الدارسين لهذا التاريخ قسموه إلى خمس مراحل: **المرحلة الأولى**: تتزامن المرحلة الأولى للحركة الفولكلورية والتي تعرف عادة باسم "مرحلة الاستشراق" مع المرحلة الأولى في تاريخ تطور الوعي الوطني الفلسطيني. تغطي "مرحلة الاستشراق" النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقدين الأولين من القرن العشرين (1850-1920). جمع المستشرقون الأوروبيون أثناء هذه المرحلة مقداراً كبيراً من التراث الشعبي من المشرق ومن "الأراضي المقدسة" بشكل خاص، مدفوعين في ذلك بدوافع دينية أو استعمارية، كانت الفرضية التي انطلقوا منها تعتمد على القول بأن الفلاح الفلسطيني ما زال محافظاً على أسلوب الحياة البدائي الذي كان لدى السكان اليهود أيام العهود التوراتية القديمة وكانت وجهة نظرهم نحو الفلاح الفلسطيني نفسه حاقدة وعدوانية. ومع ذلك كله كان لعملهم في حقل التراث الشعبي نواح إيجابية إذ أن عملهم



خَلَدَ لنا الكثير من نواحي الحياة الشعبية السائدة في فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كما أن عمله استنار عدداً من المثقفين الفلسطينيين إلى الاهتمام بجمع التراث الشعبي الفلسطيني ودراسته.

المرحلة الثانية: المرحلة الثانية في تاريخ تطور الحركة الفولكلورية يمكن أن نصفها بمرحلة "التردد" في دراسات التراث الشعبي الفلسطيني والعربي بشكل عام، أثناء هذه المرحلة استمر المستشرقون الأوروبيون، خصوصاً الألمان والإنجليز منهم، في دراساتهم في التراث الشعبي والحياة الشعبية الفلسطينية ولكن هذه الدراسات على الرغم من عدم اختلاف أهدافها ودوافعها عن المرحلة السابقة أصرحت أقل عدوانية وأكثر موضوعية في هذه المرحلة، كذلك فقد انظم إلى هؤلاء المستشرقين الأوروبيين عدد من الدارسين الفلسطينيين الذين لم يكن لديهم الاختصاص أو التدريب في حقل الفولكلور وإنما اجتذبهم أعمال المستشرقين خصوصاً "Journal of Palestinian Oriental Society" ولكن هناك في دراساتهم بعض الإشارات التي تدل على أنه كان ضمن دوافع عمله الخوف على ضياع الثقافة الشعبية الفلسطينية التي كانت في حينه آخذة بالتغير بسرعة. أما أكثرية المثقفين الفلسطينيين والعرب بشكل عام فقد قابلوا الدراسات الفولكلورية بالكثير من الشك والعدوانية. كان لردة الفعل هذه تجاه الحركة الفولكلورية عدد من المبررات أهمها الشك والخوف من أي شيء ذي علاقة بالأوروبيين المستعمرين. كذلك فقد ساور المثقفين العرب خوف من أن يكون الاهتمام بالفولكلور عامل تفريق بين العرب لا عامل توحيد، كما رأت المؤسسة الدينية الإسلامية في مادة الفولكلور مجرد خرافات وبدع معادية للدين. ثم أن الكثير من المثقفين رأوا في الاهتمام بالتراث الشعبي المصاغ باللهجات العامية المحلية خطراً على اللغة العربية الفصحى التي هي من أهم عوامل توحيد العالم العربي، واللغة التي بها حفظ جميع الأدب والعلم والنوآت العربي.

هذه العوامل مجتمعة أدت إلى وجود معارضة قوية للحقل ولم تجر أي دراسات تذكر في حقل الفولكلور في العالم العربي ما عدا تلك التي تمّت في إطار الاستشراق.

المرحلة الثالثة: جاءت مسيرة الحركة الفولكلورية في هذه المرحلة موازية ومشابهة لمسيرة الحركة الوطنية. ففي الأقطار العربية والتي كانت معظمها قد أصبحت دولاً مستقلة خف العداء تجاه الحركة الفولكلورية والنشاط الفولكلوري فأنشئت دوريات ومؤسسات تهتم بالتراث الشعبي في جميع الدول العربية، في كل دولة على حدة. أما جامعة الدول العربية فكانت وما زالت تخشى تأثير الفولكلور على وحدة العالم العربي، ونتيجة لتأثير التيار الناصري القومي فإن جامعة الدول العربية عقدت ثلاث مؤتمرات فولكلورية في الجامعة وكرست هذه المؤتمرات الثلاثة لإيجاد طرق كفيلة لاستغلال الفولكلور من أجل تدعيم الوحدة القومية العربية. فقط بين الفلسطينيين لم تكن هناك، في هذه المرحلة، حركة فولكلورية منظمة. فبالنسبة للفولكلور، كما كان الحال بالنسبة للسياسة ولجميع الميادين الأخرى، كانت جهود الفلسطينيين مشتتة ممزقة نتيجة لنكبة 1948. مع ذلك برزت هناك ظاهرة هامة بين الفلسطينيين في هذه المرحلة وهي أن عدداً من الفلسطينيين حصلوا في هذه المرحلة على شهادات عليا في حقل الفولكلور من الجامعات الأوروبية. ولكن هذه الجهود كانت شخصية وفردية ولم يتقنظمها خطة أو إطار موحد.

المرحلة الرابعة: كانت حرب 1967 بداية مرحلة جديدة في تاريخ تطور الحركة الفولكلورية الفلسطينية فقد رافق اشتداد حركة التحرر الوطني الفلسطيني وتحررها من قبضة الدول العربية إقامة العديد من المؤسسات الفلسطينية الوطنية والتي اختص الكثير منها في صياغة التراث الفلسطيني والثقافة الفلسطينية الشعبية منها والرسمية.

لقد ضمنت هذه المؤسسات الفلسطينية الوطنية عدداً من مراكز الأبحاث والمتاحف الفولكلورية ومعارض الفن الشعبي وفرق الرقص والموسيقى الشعبية.



الكثير من العمل الأكاديمي في مجال الفولكلور الفلسطيني في هذه المرحلة اقتصر على جمع التراث الشعبي الفلسطيني بجميع أنواعه ثم تصنيف هذه المواد وتبويبها وأرشفتها وحفظها. وكان يقود هذا العمل عدد من المختصين في حقل الفولكلور من حملة الشهادة الجامعية العليا يساندتهم في ذلك عدد كبير من المتقنين المتطوعين. وازداد تدريجياً عدد الذين ساهموا في هذا العمل من الفلسطينيين المقيمين على أرض الوطن.

المرحلة الخامسة: فيما يتعلق بالحركة الفولكلورية فإن دخول السلطة الفلسطينية أعلن دخول مرحلة جديدة مميزة عن كل ما سبقها. ويمكن تسمية هذه المرحلة من مراحل تطور الحركة الفولكلورية بمرحلة "مأسسة الحركة الفولكلورية". فضمن محاولة مؤسسات السلطة الفلسطينية تثبيت نفسها وكسب الشرعية لدى المجتمع الفلسطيني والقيام بمهام مؤسسات الدولة بدأت مؤسسات السلطة باحتواء المؤسسات الوطنية والدينية والاستيلاء على مهامها ووظائفها، ومن ضمنها المؤسسات التي كانت تعتني بالتراث الشعبي والتي كونت مقرأاً للحركة الفولكلورية الفلسطينية في الداخل. بالإضافة إلى ذلك فإن المؤسسات الوطنية والدينية غير الحكومية التي لعبت دوراً هاماً في الحفاظ على استمرارية جميع أشكال النضال قبل دخول السلطة أخذت تضعف وتتلاشى بعد امتصاص السلطة للكثير من وظائفها بسبب انقطاع الدعم المالي الذي كان يصلها من المنظمة ومن الدول العربية الخليجية، بالإضافة إلى اشتراط السلطة الفلسطينية بعد قيامها بأن يأتي أي دعم من العالم الغربي للمؤسسات الأهلية من خلال مؤسسات السلطة ثم تقوم مؤسسات السلطة بتوزيع هذه الأموال كما تراه مناسباً. هذان التطوران - فقدان المهام وفقدان التمويل - أضعفا المؤسسات الوطنية غير الحكومية بشكل كبير وكان من أوائل ضحايا هذا الضعف والاهتمام بالتراث الشعبي الذي لم يكن أصلاً هو الاهتمام الرئيس لهذه المؤسسات. ونستطيع أن نلخص مميزات الحركة الفولكلورية في هذه المرحلة كما يلي:

1. انقسمت النشاطات الفولكلورية عامة إلى قسمين، النشاطات الأكاديمية والنشاطات الفنية، بقيت معظم النشاطات الأكاديمية في المؤسسات الأهلية بينما انتقلت معظم النشاطات الفولكلورية الفنية إلى مؤسسات السلطة.
2. مع ضعف المؤسسات الأهلية ونقص تمويلها ضعفت الجانب الأكاديمي للحركة الفولكلورية بسبب نقص التمويل للأبحاث والنشر.
3. في إطار تنافس أجهزة السلطة المختلفة في إظهار وتثبيت نفسها انتعشت الفعاليات الفولكلورية الفنية والاستعراضية مثل المواسم والمهرجانات والاحتفالات.
4. أخذت هذه الفعاليات الفنية الاستعراضية تميل إلى الصبغة الترفيهية وتراجعت فيها الصبغة الفولكلورية الأصلية.
5. زادت المشاركة الدولية عن طريق فرق الرقص والغناء والتمثيل في هذه الفعاليات، كما زادت أيضاً مشاركة الفرق الفنية الفلسطينية في المهرجانات الدولية عن طريق العلاقات الدولية التي تقيمها أجهزة السلطة وبدعم منها.

المرحلة السادسة: يظهر الآن وكأن مرحلة أو انعطافه جديدة قد بدأت مع بداية "الانتفاضة الثانية" أو "انتفاضة الأقصى" وما تبعها من احتياجات إسرائيلية لمناطق السلطة الفلسطينية، ومن ثم تراجع مؤسسات السلطة وتقهرها وتوقف فعاليتها ونشاطاتها حتى وصلت في الوقت الحاضر (تشرين ثاني 2006) مع انقطاع الرواتب وإضراب جميع موظفي القطاع العام، إلى الانهيار التام، وإنهارت من ضمنها جميع المؤسسات التي كانت تعتني بالتراث الشعبي بشقيه الفني والأكاديمي. وبما أن اهتمام المؤسسات الأهلية بالتراث الشعبي كان قد تقلص كثيراً منذ دخول السلطة، كما جاء سابقاً، فإن الاهتمام بالتراث الشعبي في الأراضي الفلسطينية يكاد يكون الآن معدوماً.



هذه المرحلة حديثة ولم تتبلور صفاتها ومواصفاتها بشكل كامل بعد، ولا يمكن التكهّن الآن بموعد انتهائها أو توقفها، على الرغم من رغبتنا الشديدة بحدوث ذلك.

نستنتج من هذه الدراسة أن الحركة الفولكلورية الفلسطينية جزء من حركة التحرر الوطني الفلسطيني سارت في خط مواز لمسيرتها وقاست من نفس المشاكل ولاقت نفس الصعوبات، وما نجاح الحركة الفولكلورية الفلسطينية بعد حرب 1967 إلا انعكاس لنجاح حركة لتحرر الوطني الفلسطينية في نفس هذه المرحلة، فالحركة الفولكلورية ينعشها ويغذيها النضال من أجل التحرر والهوية وهي بدورها تغذي وتنعش هذا النضال.